



الأديب و المَفكِّر الرَّاحِل رَمَضانَ عَبدِ الرَّحمنِ لَأوَنَدُ



مصادر الازدهار والذبول
في حضارة الإنسان



مصادر الازدهار والذبول

في حضارة الإنسان

.....

إذا كان الإنسان المتميز حصيلة مزيج يجمع بين الحيوية في الجسد والرؤية الأصلية في الفكر والعاطفة والإرادة، فإن المجتمع المنفرد والمتميز في الوقت نفسه يجب أن يكون حصيلة مزيج يجمع بدوره بين حيوية هذا المجتمع وأصالته في الفكر كما في العاطفة والإرادة.

والجدير بالذكر أن الحضارات البشرية التي اتصلت بنا على نحو من الأنحاء فتعرفنا عليها من خلال تراث قومي أو بقايا من آثار عمران سابق أو كتب ووثائق مختلفة بقيت حية شاخصة حتى اليوم، نقول: أن هذه الحضارات تبدو لنا وكأنّ كلاً منها إعلان عن وفق جديد من الحيوية والحركية وعن طريقة جديدة في التعامل مع الخلق كله.

ولكل حضارة من حضارات البشر السابقة أجل معلوم في أثنائه يستهلك رصيدها من الحيوية والفتوة وتبرز في الوقت نفسه ثغرة أو ثغرات في الطريقة التي يتعامل بها أصحابها مع الناس ومع كل الخلق الذي يحيط بهم من كل جانب.

وإذا كانت الحضارات قد تعاقبت واحدة وراء الأخرى على امتداد الأجيال والقرون فلأن كل حضارة سابقة زائلة لم تستطع الاحتفاظ بالمقومات المعنوية والمادية لدورها في التعامل السليم مع نفسها ومع شعوب أخرى مجاورة لها أو متصلة بها على نحو من الأنحاء ومع الكون الذي يحيط بها من كل جانب حافلاً بالألغاز مستعصياً على مصادر الرؤية تارة وفتحاً ذراعيه أمامها تارة أخرى.

وفي وسعنا أن نجد في بعض ما نعرف من حضارات التاريخ توكيداً للنظرية التي أثبتناها ولا سيما الحضارات الثلاث الأخيرة.

1 - الحضارة اليونانية الرومانية

2 - الحضارة العربية الإسلامية.

3 - الحضارة الغربية المعاصرة.

أما الحضارة اليونانية الرومانية فقد بلغ من حيوية أصحابها ونمو روح المغامرة عندهم أنهم حققوا ثلاث إنجازات سياسية عسكرية.

1 - وضع حد لانتشار الهيمنة الفارسية القديمة في معركة سلاميس البحرية.

2 - تغيير موازين القوة في عصر الإسكندر الأكبر الذي راح ابتداء من عام 332 م تقريباً يخترق حدود العالم المعمور في الشرق الآسيوي وبعض القادة الأفريقية.

3 - ظهور وثبة رومانية عسكرية سياسية وسعت فتوحات الإسكندر وثبتت أقدامها لعدد من القرون.

أما فيما يتعلق بمناهج التفكير في الحضارة اليونانية الرومانية فإنّ الثابت أنّ هذه الحضارة قد وضعت حجر الزاوية لطريقة جديدة أصيلة في التعامل مع أشياء المعرفة.

صحيح أنّ المعرفة اليونانية قد بدأت على صورة أساطير ترمز إليها وتمثلها ملحمتا الألياذة والأوديسة، لكن هذه المعرفة لم تلبث منذ عصر طاليس حتى بدأت تتحرر من خيالات الأسطورة وتعتمد منطقاً جديداً في البحث عن حقائق الأشياء حتى إذا جاء عصر أرسطو تكاملت مناهج التفكير والبحث عند اليونانيين وظهرت في كتابه "المنطق" وهي المناهج التي ظهرت في ظلها دراسات وأفكار وعلوم لم تلبث بعد عدد من الأجيال أن كشفت عن قصورها في التعامل مع الكون والطبيعة والحياة.

والملاحظ أنّ الامبراطورية الرومانية كانت في طريقة تفكيرها امتداداً لليونانيين الذين فرضوا ثقافتهم عليها بعد أن فرضت عليهم سلطاتها العسكري السياسي.

وأما الحضارة العربية الإسلامية فقد انتزعت المبادرة من أشلاء الحضارة اليونانية والتراث الفارسي بفضل الحيوية الدافقة التي تميز بها العنصر العربي الذي كان يعيش داخل شبه الجزيرة العربية. فاجتاز العرب الحدود المتاخمة لشبه جزيرتهم ووقعوا القواعد من إمبراطورية مرهوبة الجانب كادت تجمع في ظلها العسكري والسياسي أقطار الأرض المعمورة من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب تقريباً.

أما من الناحية الثقافية فقد استطاعت أن تعرب ما يعرف اليوم بالوطن العربي وهو يساوي في مساحته أضعاف مساحة جزيرتهم التي صدروا عنها منذ الثلث الأول من القرن السابع الهجري كما مدوا حدود ثقافتهم الإسلامية إلى ما وراء هذا الوطن فجعلوا من دينهم مصدراً للتشريع ومنبعاً للقيم الجديرة التي جاء بها القرآن الكريم لكن

الحضارتين اليونانية والفارسية وإن هزمتا من الناحيتين العسكرية والسياسية إلا أنّ الأولى منهما استطاعت أن تلعب دوراً ثقافياً حين فرضت منهجها في التفكير عند الفلاسفة الإسلاميين من ناحية وعند المعتزلة بخاصة من علماء الكلام من ناحية أخرى. وأما الثانية فقد فرضت بعض قيمها وأخلاقها وتقاليدها السابقة على العصر الإسلامي.

لكن سلطان المنطق اليوناني واجه مقاومة شديدة بعد فترة من الهيمنة عند كل الفئات. فإذا كانت نهاية القرن الخامس الهجري أو القرن الحادي عشر الميلادي تراجعت المنهجية اليونانية تراجعاً كبيراً في الوقت الذي بدأت فيه مسيرة منهج جديد في التفكير يستند إلى الموضوعية والواقعية وهو المنهج الذي تكامل من بعد في عصر الحضارة الغربية اللاحقة.

في تلك الفترة حوَّص الفلاسفة وخاض الرأي العام الإسلامي معركة عنيفة ضد المعتزلة من علماء الكلام الذين تراجعوا أيضاً بعد فترة من الازدهار ظهرت بفضل المساندة الرسمية من قبل ثلاثة خلفاء عباسيين هم المأمون والمعتصم والواثق.

ومنذ بدأت الحروب الصليبية التي استمرت قرابة قرنين ثم عقبها حملات المغول أخذ العالم الإسلامي يتراجع كمظاهرة عسكرية سياسية وثقافية رغم المساندة العسكرية التي تمثلت في الامبراطورية العثمانية التي كانت الفصل الأخير من فصول الحيوية والحركية في مجتمع الحضارة العربية الإسلامية.

والجدير بالذكر أنّ العرب بخاصة والمسلمين بعامّة لم يستطيعوا استيعاب الأبعاد الفكرية لعقيدة الوحدانية التي جاء بها الإسلام والتي يمكن القول بأنها الرؤية الفكرية الكبرى التي لو أدرك المسلمون أبعادها لحققوا الانتصار العلمي الأكبر في تاريخ الحضارات البشرية.

ومع ذلك فإنّ العلماء العرب بدأوا منذ بواكير نهضتهم يجمعون الملاحظات ويقترّبون شيئاً فشيئاً من المنهجية العلمية. فالجاحظ في كتاب "الحيوان" لم يقتصر على تسجيل الأخبار والروايات دون تمحيص بل لجأ في كثير من موضوعاته إلى جميع الملاحظات واستقراء الوقائع في ضوء فرضيات يصنعها حتى إذا وجد في الاستقراء ما يساند هذه الفرضيات خرج برأي علمي معين.

لكن هذا الاتجاه لم يبلغ من النمو والشمول بحيث يمكن القول بأنّ الفكر الوضعي قد أصبح حقيقة ثابتة عند علماء العرب المسلمين. وقد حاول المسعودي في تاريخه أن يستعين بهذا المنهج في ما حققه من الروايات لكن المنهج الوضعي بلغ أقصى غاياته عند المسلمين في مقدمة ابن خلدون. كما ظهرت بين الجاحظ وابن خلدون

اتجاهات نحو الفكر الموضوعي عند جملة من علماء الفلك والطب والجغرافيا في مقدمتهم الرياضي الفلكي البيروني والطبيب الرازي والفيلسوف الطبيب ابن سينا في بعض مباحثه وغيرهم.

أما لماذا كان استيعاب عقيدة الوجدانية عند المسلمين مدعاة لظهور منهج علمي كامل فهذا أمر يتعلق بإبعاد هذه العقيدة بالذات وهي كما يلي:

1 (تقرر عقيدة الوجدانية أنّ الله عز وجل هو وحده الذي يستقل بالخلق وأنّه لا شريك له في ملكه وأنّه لا يغيب عنه مثقال ذرة في السماوات والأرض فهو ليس كمثل شيء وهذا يعني بالطبع أنّه ليس في الأكوان كلها ولا في أشياء الطبيعة الجامدة والنبات والحيوان ما يتمتع بقدرة مستقلة عن قدرة الله وبذلك تسقط كل الأساطير والخرافات التي تمنح الكواكب والنجوم أو أنواعاً من النبات والحيوان أو فريقاً من الناس قدرة متميزة فكل الخلق خاضع لسنن وقوانين فرضتها العناية الإلهية لا يخرج عليها أحد ولا يتحداها مخلوق من المخلوقات.

2 (تقرر عقيدة الوجدانية أنّ الإنسان وحده هو المستخلف على الأرض دون المخلوقات، والمخلوقات هذه حيث كانت ومهما يمكن دورها في الحياة الدنيا مسخرة لهذا الإنسان موضوعة تحت تصرفه ففي وسعه أن يتعامل معها على أساس أنّه صاحب الهيمنة عليها دون سواه من المخلوقات.

3 (تقرر عقيدة الوجدانية أنّ على الإنسان أن يسير في الأرض ليتعرف إلى كيفية بدء الخلق ليكتشف السنن التي تخضع لها وأن يستخرج منها نعم الله التي لا تعد ولا تحصى. فهي توظف في الإنسان ملكة الملاحظة وتحضه على استنباط الفروض وتدفعه دفعاً إلى استقراء الوقائع ليخرج من هذا كله بالمعارف التي تيسر له وبالفوائد التي توفر له الفرص لإثارة الأرض وأعمارها.. كما تحضه على النظر في السماوات التي تحيط به من كل جانب لتحقيق غرضين: الغرض الأول تمييق روح العبادة عنده. والغرض الثاني التعرف إلى أسرار ملك الله بل أنّ كتاب الله لم يستبعد انطلاق الإنسان إلى عالم السماء حين يتوفر له السلطان الذي يمكنه من ذلك.

4 (ولا تقتصر تعاليم كتاب الله على دفع الإنسان إلى التفكير في خلق السماوات والأرض وحسن استغلاله لما فيها من النعم بل تدفعه أيضاً إلى تكوين فكر تاريخي يكتشف به وحده القوانين والسنن التي تنهض بها الأمم وتتماسك أو تنهار وتتفتت ذلك لأنّ هذه السنن والقوانين التي يخضع لها البشر ثابتة لا تتغير.

هكذا تكون عقيدة الوجدانية المصدر الأساسي لتحقيق الأغراض التالية:

1 (الفصل التام والمطلق بين الخالق والخلق.

2 (منح الإنسان الصفات التي يتميز بها من كل المخلوقات تقريباً.

3) تعرية كل المخلوقات من أي قوة سحرية أو صفات إلهية وتسخيرها كلها لمصلحة الإنسان.

4) إعلان أنّ سنن الله وقوانينه في خلقه ثابتة لا تتغير.

5) حض الإنسان على استخدام فكره في التعرف إلى هذه القوانين وتلك السنن.

لكنّ الثقافات القديمة التي تسللت إلى شعوب الحضارة العربية الإسلامية بكل ما فيها من بقايا السحر والشعبذة أو التي حملت معها المنطق الشكلي عند قدماء اليونان، هذه وتلك طرحت العراقيل أمام الفكر الإسلامي فعميت عليه الطريق بحيث لم تصف له منهجية عقيدة الوحدانية بأبعادها البينة الواضحة.

وعندما كاد الفكر الإسلامي أن يتوصل إلى اكتشاف المنهج الموضوعي والواقعي كان العالم الإسلامي قد فقد حيويته وقدرته على التحرك من ناحية كما فقد بالتالي قدرته على الإفادة من أبعاد الوحدانية الفكرية. وهذا هو السر في فشل الفكر الإسلامي وعجزه بعد ابن خلدون عن متابعة الرؤية العلمية الأصيلة التي تميز بها في مقدمته على تاريخه.

ثم نتقل إلى الحضارة الغربية المعاصرة التي تستقل منذ ثلاثة قرون تقريباً في الإلتزام بمنهج وضعي ابتدأت مسيرته تقريباً مع فرنسيس بيكون ورينيه ديكارت وانتهت إلى أقصى غاياتها في الفلسفة الوضعية لأوغست كومت. والجدير بالذكر أنّ شعوب الحضارة الغربية قد اتصفت كما اتصفت شعوب سابقة متحضرة بصفتي الحيوية من ناحية والرؤية الأصيلة من ناحية أخرى.

فبفضل الحيوية تمردت على سلطان الكنيسة في القرون الوسطى ورفضت العقائد الجامدة التي كانت تقاوم حرية الفكر وتفرض على رعايا الكنيسة التسليم بأفكار معينة تتجافى عن الوقائع الثابتة والملاحظات العلمية الجديدة.

وقد ساعد الأجيال العلمية الجديدة على عزل الفكر الكنسي وسلطان الباباوات تلك الإنجازات العلمية المادية التي أثبتت فعاليات المنهج الوضعي. وفي وسعنا القول بأنّ حيوية الغرب ومنهجية الموضوعية هما من وراء الإنجازات التكنولوجية التي تحققت حتى اليوم.

وكما أنّ اليونانيين والرومانيين القدماء قد فقدوا حيويتهم وعجز منطقتهم عن استيعاب المعارف المطلوبة.. وكما أنّ العرب والمسلمين قد فقدوا بدورهم نصيبهم من الحيوية وعميت عليهم الرؤية الفكرية النابعة من عقيدة الوحدانية التي تنادي بإسقاط الفكر الأسطوري والسحري من ناحية وتتجاوز في أبعادها الفكرية المنطق الأرسطي، فإنّ حضارة الغرب اليوم تواجه الجوانب السلبية لمنهجها الموضوعي، فبينما تحقق بهذا المنهج إنجازات تكنولوجية مدهشة إذا بها تتخبط في التعامل مع مواطن المعرفة ومصادر التوازن في عالم الإنسان. فبدلاً من أن

يكون النتاج العلمى فى خدمة الإنسان أصبح أداة لصنع الكوارث وإثارة الحروب المدمرة وبذلك بدأ السحر ينقلب على الساحر.

أما السؤال الذى يتراءى لنا الآن فهو مؤلف من جزئين :

1 (هل أنّ حضارة الغرب تستهلك ذاتها اليوم؟

2 (وكيف السبيل إلى تعديل منهج التفكير عند أصحاب هذه الحضارة؟
